ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 29 مارس 2017

التفكير في الإسلام بين الأمس واليوم

دانييل سمات

ترجمة: عبد المجيد يوسف

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017

التفكير في الإسلام بين الأمس واليوم

ملف أعدَّه: **دانييل سمات** Daniel Smet

عرَّبه: **عبد المجيد يوسف**

مدخل

نشرت مجلة لوبوان Le Point في عددها المرجعيّ نوفمبر/ ديسمبر 2015 ملفّاً بعنوان جامع هو: «التفكير في الإسلام بين الأمس واليوم»، تضمَّن العديد من اللقاءات والاستجوابات لمفكّرين مسلمين، كما تضمَّن ملفّاً عن الشّيعة وآخر عن السُّنَّة، وثالثاً عن التّصوُّف، ورابعاً عن النَّهضة الإسلاميَّة في القرن التّاسع عشر، وخامساً عن الأركان المرجعيَّة للعقيدة الإسلاميَّة. وكان من مسوّغات تعريبنا له - إضافة إلى عمق التحليل - أنَّه ينقل وجهة نظر لعالِم من خارج المنظومات الفكريَّة التي قد تتَّسم بالميل إلى هذا الجانب أو ذاك، أو تكون متأثرة في بعض أحوالها بالصّراع القائم بين الطّائفتين: السُّنَّة والشّيعة. ومن هذه المبرّرات أيضاً أنَّ العالم الإسلاميَّ اليوم يجد كثيراً من الويلات من جرَّاء الطّائفيَّة التي أصبحت المحرّك الأساسيَّ للحروب الحاليَّة. هذه الحروب التي نشأت من انتفاضات مطالبة بالحداثة والدّيمقراطيَّة فصارت حرب مواقع بين الطّوائف الدّينيَّة. فليس أقلّ من أن يفهم المسلم، طائفياً كان أو غير طائفيّ، حقيقة هذه المذاهب التي تتنازع حياته وتتنافس السَّيطرة على فكره ونمط وجوده، وأن يطّلع على حقيقة الطّائفتين المتحاربتين في عمقهما الفكريّ التاريخيّ الأصليّ.

وقد بدأنا بنقل الملف المتعلق بالشّيعة، وشرعنا بعدُ في ترجمة الملف «السُّنّيّ».

والملفُّ المتعلّق بالشّيعة من وضع المفكّر الفرنسيّ **دانييل سمات**، وهو مدير بحوث بالمركز القوميّ الفرنسيّ للبحث العلميّCNRS متخصّص في تأثير الأفلاطونيَّة الجديدة في الإسلام وفي الفلسفة الإسلاميَّة، وله في هذا الباب مؤلّفات عدَّة. كما أنَّه ترجم العديد من المؤلّفات الأمَّهات من العربيَّة إلى الفرنسيَّة، مثل رسائل إخوان الصَّفا وبعض المراجع الشّيعيَّة.

وقد احتوى الملفُّ الذي عنوانه «الإسلام المخلّص» على مقدّمة ومقالات. كلَّ مقال مرفَق بنصّ من ترجمة المؤلّف منتقى من المراجع ذات الصّلة:

1- **الإمام هو الحائز على معرفة باطنيَّة** (النّصُّ المرفق: للشيخ المفيد من كتاب الإرشاد).
2- **الظاهر والباطن** (في معنى الشَّرع) (النّصّ المرفق لأبي يعقوب السّجستاني من كتاب الينابيع).
3- **اختيار التسامح** (تعدُّد الأديان) (النّصُّ المرفق من رسالة لإخوان الصفاء).

ولم نشأ أن نعرّج على هذه النُّصوص المرفقة لسهولة الرُّجوع إليها في مصادرها العربيَّة عند الاقتضاء.

هذا وقد ذيَّلنا التَّرجمة ببعض الهوامش كما تقتضيه كلُّ ترجمة علميَّة.

الشّيعة
الإسلام المخلّص

المذهب الشّيعيّ طريقة روحيَّة باطنيَّة، تأسَّست على الوظيفة المقدَّسة للإمام. وقد طوَّر المذهبُ الشّيعيُّ فكراً شديد التّعقيد لا صلة له بالمتشدّدين الذين يدَّعون نسبتهم إليه.

ظلَّ المذهب الشّيعيُّ مجهولاً تقريباً في الغرب، ولم يظهر للعالم إلا سنة 1979 إبَّان الثَّورة الإيرانيَّة. ومن ذلك الحين ظلَّ المذهب الشّيعيُّ في صدارة المواضيع للصُّحف في جنوب لبنان وفي العراق وسورية وكذلك في اليمن والبحرين، فبدا في أغلب الأحيان على أنَّه شكل من أشكال الإسلام المتشدّد المتعارض تعارضاً صارخاً مع المذهب الشّيعيّ التّقليديّ.

ذلك أنَّه ـ حتى بداية القرن العشرين ـ كانت قلعة الإسلام الباطنيّ هذه، حسب عبارة عالم الإسلاميَّات الفرنسيّ هنري كوربين[1]، تجسيداً للإسلام الرُّوحيّ على غرار الصُّوفيَّة السّنّيَّة. ويبدو أنَّه كان في الفترة الأخيرة موضوعاً لتحوُّلات مهمَّة ينبغي توضيحها.

عندما قُبِض النّبيُّ محمَّد وقد أغفل أن يهيّئ خلافته ـ لا شك لأنَّه كان يعتبر نفسه خاتم النّبيئين قبل النّهاية الوشيكة للعالم ـ أحدثت وفاته مفهومين متناقضين لطبيعة السُّلطة السّياسيَّة والرُّوحيَّة.

فالسُّنّة تعتبر أنَّ موت محمَّد خاتم النّبيّين تمثّل نهاية الوحي، بعد رحيله لا أحد يمكنه أن يتلقّى الوحي مباشرة من الله، والأمَّة يقودها قائد مُنتخَب «ديمقراطيًّا» يفترض أن يكون مطبّقاً للشَّرع النَّبويّ.

أمَّا الشّيعة فإنَّهم يرفضون هذا التّوقُّف للوحي الإلهيّ. بعد محمَّد يستمرُّ الوحي في إسناد الأمَّة بواسطة قائد فذّ تعتمد سُلطته الدّنيويَّة والرّوحيَّة على الوحي الإلهيّ. هذا القائد الإمام ليس بإمكان العالم أن يقوم يوماً واحداً بدونه.

الخلفاء الشَّرعيُّون

ومن هنا فقد أكّد الشّيعة أنَّ محمَّداً عيَّن خليفة له: عليّاً زوجَ ابنته فاطمة. بيد أنَّ هذا التَّعيين لم يكن سياسيًّا فحسب، بل إنَّه أفضى إليه بعلم أساسيّ هو المعرفة بالمعنى الباطن للوحي وبمفاتيح التّأويل التي تسمح بإبراز الحقائق الخفيَّة وراء المعاني الظّاهرة لنصّ الوحي. هذه العُهدة توارثها عن عليّ نسْلُه الذين يؤلّفون سلالة

1- هنري كربين Henry Corbin (1903/1978) فيلسوف مترجم ومستشرق فرنسي، اشتغل على الإسلام الشيعي في إيران وعلى التصوُّف، وترجم مصادر مهمة للسّهروردي والشيرازي وابن عربي.

الأئمَّة المختصّين دون غيرهم بالخلافة الشّرعيَّة للنّبيّ، في حين أنَّ الخلفاء الثّلاثة الأوائل أبا بكر وعمر وعثمان إضافة إلى الأمويّين والعبَّاسيّين يعتبرون محتالين، أيْ أنَّهم كُفَّار.

ولكون الشيعة لا يمثّلون إلا فئة قليلة من المسلمين (أقل من 10% من المسلمين الحاليّين)، فإنَّ الأئمَّة اتخذوا في الأغلب سياسة براغماتيَّة حذرة إزاء الاضطهادات التي كانوا ضحاياها، ففضَّلوا التّعليم الدّينيّ الرّوحيّ على العمل السّياسيّ. بيد أنَّه، منذ البداية، كان للمذهب الشّيعيّ آمال إنقاذيَّة، فجلُّ الأئمة كانوا مُحاطين بأتْباع متحمّسين يرون فيهم «المهديّ» أو المسيح الذي سيقوم بسيفه ليملأ الأرض عدلاً قبل يوم القيامة.

هذه النّزعة التّخليصيَّة تولّد عنها العديد من التمرُّدات على الأنظمة السَّائدة، وقدَّم العديدُ من المغامرين أنفسهم على أنَّهم من نسل عليّ، وادَّعوا بأنَّهم أئمَّة مَهديُّون، ونشروا التّمرُّد بين المنبوذين في المجتمع الإسلاميّ من غير العرب وبين العبيد السُّود والعامَّة من الطّبقات البائسة. لكنَّ هذه الثّورات كانت محدودة، وقد تمَّ قمعها بالدّماء من طرف السُّلط السُّنّيَّة، وكثيراً ما كانت مرفوضة من طرف الأئمَّة الشّيعة الشّرعيّين.

ومن جهة أخرى فإنَّ المذهب الشّيعيَّ أبعد من أن يكوّن وِحدة متجانسة، فمنذ موت عليّ سنة 661م ظهرت طائفة من الحركات المتباينة تنازعت هويَّة الإمام الشّرعيّ. ومن هذه الفرق ثلاث كبرى ما فتئت موجودة إلى الآن، لها مفاهيم متباينة عن الإماميَّة في ظلّ تطوير مفاهيمها اللاهوتيَّة والفلسفيَّة الخاصَّة بها:

- الزّيديَّة القريبة من السُّنَّة وأغلب أتباعها في اليمن.

- الإسماعيليَّة القائمة على حلقات مُتتالية تشمل سبعة أئمَّة، ومن أهمّ فروعها واحدة في الهند زعيمها الآغا خان[2] (كريم آغا خان الرَّابع وهو مولود سنة 1936).

- وأخيراً فإنَّ أكثر الفرق الشّيعيَّة عدداً - فيما يبدو - هي الشّيعة الإماميَّة أو الاثنا عشريَّة، أكثرها في إيران والعراق ولها أتباع عديدون في لبنان. إمامُهم الثّاني عشر الذي يعتبر «المَهديّ» يعيش في الخفاء منذ القرن العاشر الميلاديّ ليظهر منتصراً في آخر الزَّمان.

وتبعاً لذلك فإنَّ الأئمَّة وتابعيهم ركَّزوا اهتمامهم قبل كلّ شيء على الطّابع الدّينيّ لمهمَّتهم، أيْ حيازتهم لمعرفة باطنيَّة تتعلّق بالمعاني المكنيَّة للقرآن. ووظيفة الأئمَّة هي تعليم تلك المعاني لأتباعهم الجديرين بذلك.

2- كريم آغا خان، ولد 1936 في جنيف، وقضى معظم طفولته في نيروبي بكينيا. وتولى مقاليد الإمامة عام 1957م خلفاً لجده السير سلطان محمد شاه آغا خان قبل تخرجه في جامعة هارفارد.

يُعتبر الزعيم الروحي للإسماعيليين في العالم، ويقولون إنَّه يعود نسبه إلى النبي محمد عبر صهره الإمام علي بن أبي طالب زوج فاطمة. وهو الإمام التاسع والأربعون للشيعة الإماميَّة الإسماعيليَّة بالوراثة.

وقبل البدء بالتّعلّم، على المبتدئ أن يوقّع على ميثاق ولاء ويلتزم بطاعة الإمام في كلّ الأحوال، وأن يحفظ سرَّ ما أوتي من الأسرار. إنَّها وثيقة التّقيَّة الشّهيرة التي هي في الآن ذاته إجراء أمنيّ إزاء التّهديد السُّنّيّ وضمان لقداسة الأسرار.

الانفتاح على الآخر

البحثُ عن المعاني الباطنيَّة للقرآن ولكلّ نصوص الوحي السَّابقة مكَّن المؤلفين الشّيعة من تطعيم فكرهم بعناصر مستوحاة من الفلسفات والأديان السَّابقة للإسلام مثل الأفلوطينيَّة والأرسطيَّة والغنوصيَّة المسيحيَّة والهاجادا[3] اليهوديّ والأديان الإيرانيَّة كالزّرادشتيَّة والهندوسيَّة. هذا الانفتاح على الآخر هو ما يؤسّس ثراء المذهب الشّيعيّ، ويُبيّن إضافاته الكبيرة للتَّاريخ الفكريّ للإسلام.

ومنذ القرن العاشر الميلاديّ طوَّر الفلاسفة الإسماعيليون في إيران تفكيراً كونيَّاً «وأنظمة للعالم» بغاية التَّفسير للمعطيات القرآنيَّة في ضوء الانعكاسات الفلسفيَّة المستوحاة من الأفلوطينيَّة والأرسطيَّة.

ويمثّل القرنان العاشر والحادي عشر العصرَ الذّهبيَّ للإسماعيليَّة في عهد الدَّولة الفاطميَّة في مصر. فقد كان الفاطميُّون حريصين على منافسة العبَّاسيّين السُّنَّة، فجلبوا إلى بلاطاتهم بالقاهرة الفلاسفةَ ورجالَ الدّين والعلماءَ والرّسَّامين والموسيقيّين، وزوَّدوا العاصمة بالمكتبات والمشافي والمراصد، وتمَّ إنشاء دار للحكمة مهمَّتها دراسة العلوم غير الشَّرعيَّة.

وبعد نهاية الفاطميّين كان الأمرُ للشيعة الاثني عشريَّة في إيران، فأشرف الأئمَّة الصّفويُّون على العلوم والفنون. وكان الهوى الشّيعيّ معبَّراً عنه في كتابات فلاسفة مرموقين مثل المُلا صدرا (1640/1571)[4]، وهو أشهرهم، فقد سنَّ طريقة فلسفيَّة استمرَّت إلى بداية القرن العشرين، كان هدفها إيجاد تناسُب بين الإسلام الشّيعيّ وفلسفة ابن سينا والتّصوُّف. هذا التُّراث الثّريُّ بشكل استثنائيّ كُشف عنه للجمهور الأوروبيّ في أعمال هنري كوربين (1978/1903). فبمَ نفسّر حينئذ أنَّ الفكر الشّيعيّ الشّديد التّفتّح والتّسامح في أيام مجده أمكنه أن يولّد انحرافات الخمينيَّة المُعادية لكلّ تأثير خارجيّ؟ هذا فضلاً عن أنّه، حسب العقيدة الاثني عشريَّة نفسها، يقتضي اختفاءُ الإمام الثّاني عشر (وهو القائد الشّرعيّ الوحيد للأمَّة) الامتناعَ عن ممارسة كلّ نشاط سياسيّ إلى حين عودته الأخرويَّة.

3- الهاجادا أو عيد الفصح كلمة تعني السرد أو الرواية، وهو أحد أهم النصوص التي يقدّسها اليهود. بهذه المناسبة يجتمع اليهود حول الموائد لقراءة أسطورة الهاجادا، وهو عبارة عن كتاب يحتوي على نصوص تقليديَّة من سفر الخروج من مصر.

4- المُلا صدرا، محمَّد بن إبراهيم القوامي الشيرازي (980هـ 1050هـ / 1572م-1640). هو خاتمة حكماء الشيعة. ينسب إليه نهج الجمع بين الفلسفة والعرفان، الذي يُسمَّى الحكمة المتعالية. كان طرحه متطوراً جداً وفاق حدود عصره ممَّا صعب على معاصريه أن يقبلوه، فلاقى من معاصريه صنوف المضايقات حتى طرد من بلدته، فالتجأ إلى القرى النائية منقطعاً إلى الرياضة الروحيَّة، حتى تجلت له العلوم الباطنيَّة، فعاد على البشرية بحكمته المتعالية. يُعرف أيضاً بـ "صدر المتألهين".

وبقطع النَّظر عن الطّابع الرّوحيّ والباطنيّ الذي يؤسّس جوهر المذهب الشّيعيّ، فإنَّ بعض رجال الدّين اهتمُّوا بظاهر النَّصّ التّشريعيّ، وقدَّموا له تأويلاً قريباً من أكثر التّيّارات السُّنّيَّة تشدُّداً. ومن جهة أخرى فإنَّ قادتهم الحاملين للقب «آية الله»، وقد انتظموا في نظام تَدرُّجيّ صارم، أسندوا إلى أنفسهم حقوقاً لا تعود إلا إلى الإمام الثّاني عشر. ونتيجة لهذا التّطوُّر المتعدّد الجوانب فإنَّ الإرث الخمينيَّ تستمرُّ وطأته على العالم الشّيعيّ بالرّغم من وجود حركات احتجاجيَّة وإصلاحيَّة يتأكَّد تأثيرها يوماً بعد يوم في إيران.

الإمام حائز المعرفة الباطنيَّة

يتمركز الإمام في قلب العقيدة الشّيعيَّة، فهو الخليفة الشَّرعيُّ الأوحد للنّبيّ محمّد، وهو في الآن ذاته زعيم سياسيّ ومرشد روحيّ، وهو حامل لمعرفة باطنيَّة وتعليميَّة، وهو مصدر كلّ علم والبابُ المفضي إلى «مدينة المعرفة»، وهو المعلّم الذي تعاليمه تهدي الأتباع إلى سبيل الخلاص. وبموجب هذه المعرفة يحظى الإمام بسلطة ما ورائيَّة تتيح له الإتيان بالمعجزات والسّيطرةَ على القوى الطَّبيعيَّة.

أفعال خارقة

يمدُّنا الأدب الشّيعيُّ بآلاف المأثورات التي تروي الوقائع والحركات والأقوال المفعمة بالحكمة والإنجازات الخارقة لكلّ إمام، وتغذّي في الوقت ذاته الرُّوحانيَّة والعقيدة لدى المؤمن المتشيّع. هذه المأثورات تفتح آفاقاً واسعة لمؤرّخي الدّيانات، لأنَّها تُقيم العديد من المقارنات مع الأساطير النَّبويَّة اليهوديَّة وطقوس الصَّالحين في النَّصرانيَّة.

ويمثّل عليّ، وهو صهر محمّد وابن أخيه[5] وحامل للمعنى الخفيّ للقرآن وأساس الإمامة، موضوعَ تقديس خاصّ من طرف جميع أتباع المذاهب الشّيعيَّة الذين ينسبون إليه معارف وسلطات خارقة، وهو نموذج الإمام المقتدر، وزعيم مُقدَّم وصاحب معجزات، يتحكَّم بمياه الفرات (نهر في بلاد الرَّافدين) مثلما هدّأ يسوع المسيح العاصفة (إنجيل متى. الإصحاح الثامن. الآيات 23-27)[6] وكلُّ أسماك النَّهر تحيّيه باستثناء غير ذات الحراشف لأنَّها نجسة حسب الشّريعة الإسلاميَّة، وهي التي تجسّم خصوم عليّ وخصوم شِيعته.

5- هكذا ذكر المؤلف حيث عيّن علياً بالنسبة إلى محمد بـ ""Neveu. (علي هو ابن عمّ محمد).

6- نقرأ في إنجيل متى: "ثم ركب القارب وتبعه تلاميذه وإذا عاصفة شديدة قد هبّت على البحيرة حتى كادت المياه تبتلع القارب فأسرع التلاميذ إليه بوقظونه قائلين: "يا سيّد نجّنا إنا نهلك"...، ثم نهض وزجر الريح والبحر فساد هدوء تامّ...".

استشهاد الحسين

ثم انتقلت الإمامة إلى نجليْ عليّ الحسن والحسين اللذين يمثّلان مع والدتهما فاطمة بنت النّبيّ مجموعة أهل البيت. وهناك كثير من المأثورات تبيّن العطف الذي كان محمّد يوليه لحفيدَيْه. رغم ذلك فإنَّ الحسين سوف يقتله السُّنَّة في معركة كربلاء سنة 680م. ويعتبر الشّيعة مقتلَ الحسين «مِحْنة» موصوفة بكلام دامٍ يُحاكي من قريب محنة المسيح. وما فتئ الشّيعة يحتفلون كلَّ سنة باستشهاد الحسين بتعنيف الذّات بطريقة تذكّر بآلام الحسين في كربلاء. إنَّه طقس حقيقيّ أقيم من أجل دمه، يُمارَس في جملة من الأساطير الخارقة التي تذكّر بقداسة «القدح المقدَّس»[7] في النّصرانيَّة. وهكذا فإنَّ دم الحسين المحصّل في وعاء يعود سائلاً كلَّ سنة بمناسبة ذكرى مقتله في كربلاء.

لكن سوف يُنتقَم لمقتل الحسين ولكلّ المظالم التي نالت الأئمة والشّيعة، وذلك في آخر الزَّمان عندما يخرج الإمام الثّاني عشر من مخبئه شاهراً سيفه ليملأ الأرض عدلاً، ويُنزل بالمتجبّرين العقابَ الذي يستحقُّونه.

والإمام الثّاني عشر هو نجل الإمام الحادي عشر من أميرة بيزنطيَّة، تكلّمَ وهو في المهد مثلما ذكر القرآنُ عن المسيح. وتؤكّد بعض الأقوال أنَّه كان يتلو القرآن وهو في بطن أمّه. وقد اختفى منذ ولادته لوقايته من خبائث السُّنَّة، بيد أنَّه ظلَّ على اتّصال بأتباعه عن طريق وسطاء. ولكنْ، في سنة 942م انقطعت كلُّ صلة به وأصبح يعيش منعزلاً في كهف لا يعرف موقعه أحد. وقد مدَّ الله في عمره إلى يوم ظهوره الذي ينتظره بشوق ملايينُ الشّيعة الاثنا عشريَّة منذ عشرة قرون.

في معنى الشرع

الظاهر والباطن

يمثّل التّمييز بين الظّاهر والباطن علامة مميّزة في التّفكير الشّيعيّ. وكلُّ النّصوص التي أوحِيَ بها إلى الأنبياء (التّوراة والمزامير والإنجيل والقرآن طبعاً) تحمل معنى حرفيًّا ظاهراً تختفي وراءه دلالة عميقة لا يصل إليها العامَّة. ويمثّل استخراجُ هذا المعنى الباطنيّ عن طريق إخضاع نصّ الوحي للتّأويل الامتيازَ العرفانيّ الذي يَمنحه الأئمةُ لمن يمثلهم من المتشيّعين المطّلعين.

7- أسطورة الكأس تعتبر إحدى الميثولوجيا المسيحيَّة، حيث يعتقد أنَّها الكأس التي استخدمها المسيح في العشاء الأخير، وقام يوسف الرامي بجمع دم المسيح من على الصليب، وكانت لها قوة إعجازيَّة كبيرة.

مظهران لحقيقة واحدة

ويرجع الظاهرُ إلى الباطن كما يعود الرَّمز إلى الحقيقة المرموز إليها، بيد أنَّ المؤمنين الشّيعة يرفضون التمشّي الذي انتهجه بعض الفلاسفة المسلمين رفضاً قطعياً، فلاسفة مثل الفارابي (950/872) أو ابن رشد، الذين يقصِرون النّصَّ القرآنيَّ على مجرَّد أمثلة صاغها النّبيُّ محمَّد لغاية أن يوصل بعض المفاهيم الأخلاقيَّة الأساسيَّة للعموم الجهلة غير القادرين على النَّظر العقليّ. ويعتبر الشّيعة أنَّ للظاهر النَّصّيّ معنى لصيقاً يرتبط عضويَّاً بالمعنى الباطن، فهاهنا مظهران لحقيقة مفردة واحدة. فالظّاهر بالنّسبة إلى الباطن كالرُّوح بالنّسبة إلى الجسد، لا بُدَّ منهما ليكون هناك كائن بشريّ. ومن ثَمَّ فإنَّ الشّيعة الاثني عشريَّة والإسماعيليَّة يتَّبعون توازياً صارماً بين الشَّريعة النَّبويَّة وبين تأويلها الخفيّ الذي يعلمه الإمام.

تمثّل التّفرقة بين النّبيّ محمَّد والإمام عليّ بتفضيل أحدهما على الآخر خطراً مزدوجاً ما فتئ ملاحَظاً حتَّى في صلب الشّيعة، فإذا كان بعض علماء الدّين على غرار أهل السُّنَّة والجماعة (الإسلام الأرثوذوكسي) يقصِرون الإسلام على نظام تشريعيّ لا روحانيَّة فيه، فقد ظهرت على الهامش حركات متطرّفة ترفض المعنى الظاهر وتقول بالتأويل.

وهناك بعض الفرق الإسماعيليَّة مثل قرامطة البحرين أو الحشَّاشين في ألموت[8] بإيران أبطلوا الشَّريعة لفائدة دين تأويليّ صِرف لا يُلتزم فيه بممارسات طقوسيَّة كالصَّلاة وصوم رمضان. وتؤكّد النُّصوص المترجَمة هنا[9] من المأثورات الإسماعيليَّة على التَّكامل بين الظّاهر والباطن. ويبرّر أبو يعقوب السّجستاني (971/893)[10] في مؤلفه كتاب الينابيع[11] المعنى الباطنَ للجنَّة والجحيم، وباعتباره فيلسوفاً من المدرسة الأفلوطينيَّة فقد جمع النّبيَّ والإمام إلى أقنوميْ أفلوطين، أيْ العقل والرُّوح اللذين يكوّنان زوجاً لا انفصام له.

8- قلعة آلموت (Alamūt|) قلعه فوق جبل الموت العالي جنوب بحر قزوين، بنيت نحو سنة 840 م، كانت مركزاً للحشاشين بعد ما فتحها حسن الصبا، ومنها حارب السلاجقة إلى أن دمَّرها هولاكو.

9- النصوص التي ترجمها المؤلف هي:

- "من أراد المعرفة فليأخذها من فم عليّ"، مقتطع من كتاب الإرشاد للشيخ المفيد.

- "الدين هو روح الشرائع وعقلها، والشرائع هي جسد الدين ومظهره"، مقتطع من كتاب الينابيع لأبي يعقوب السجستاني.

- "تنوّع الشرائع ليس مطلقاً مضرّاً طالما أنَّ الدين واحد"، مقتطع من إحدى الرسائل لإخوان الصفاء.

10- أبو يعقوب السِّجِسْتاني السّجري: فيلسوف إسماعيلي مختلف في تاريخ ولادته. قال ماسينيون إنَّه توفي سنة 331 للهجرة، ويذهب آخرون إلى أنَّه توفي بعد ذلك. يقول عنه الكاتب الاسماعيلي عارف تامر: يعتبر أبو يعقوب إسحاق السجستاني (السجزي) في طليعة العلماء الذين كرَّسوا أنفسهم لوضع قواعد فلسفيَّة كونيَّة قائمة على دعائم فكريَّة عقائديَّة إسماعيليَّة، ونشرها وتعميمها. قتله السفاريد حاكم خراسان.

11- كتاب الينابيع: من أهمّ كتب أبي يعقوب السجستاني في مجال الحكمة والعلوم الإلهيَّة، مقسَّم إلى 40 فصلاً تُدعى "فصول الربيع". عمل عليه هنري كوين، وترجمه إلى الفرنسية سنة 1961م.

وبواسطة هذين الأقنومين يدخل المؤمن الجنَّة، وهي سعادة الرُّوح البشريَّة التي بواسطة العرفان المخلّص النّابع من الرُّوح[12] أو من الإمام تصبح خالدة، وتلتحم بمصدرها السَّماوي الذي هو العقل.[13]

ظاهر الشريعة

هذه الحال من السَّعادة الفردوسيَّة النَّاتجة عن العودة إلى المنابع تقتضي الالتزام الحرفيَّ بالشَّريعة التي هي كالسُّمّ يُستعمل في التَّطبيب، إذا حقنته بحكمة واعتدال نفع، مثلما تضمن الشَّرائعُ سعادة المجتمع وتؤسّس مرحلة لا بُدَّ منها للسُّموّ نحو السَّعادة، شرط أن تظلَّ على صلة بمعناها الباطن. ولكنَّ الإفراط في استعمال هذا السُّمّ يمكن أن يقتل، مثلما تهلك شدَّة التّعلق بالشَّريعة مفصولة عن معناها الباطن. هذا هو معنى الجحيم عند السّجستاني. وحين تقارن هذا بالتشيُّع الإسلامويّ المستوحى من آية الله الخميني (1989/1902) يحتفظ نصّ السّجستاني بكلّ حداثته.

تعدُّد الأديان

اختيار التسامح

تكوّن الإسلام - آخر الدّيانات التّوحيديَّة من حيث التَّاريخ - في صلة بالدّيانات «الإبراهيميَّة» السَّابقة له عن طريق استيعابها في منظومته الفكريَّة. وبما أنَّ الوحي واحد وأزليّ وثابت في اعتبار أكثر السُّنَّة فإنَّ كلَّ الأنبياء (آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد) قدَّموا للبشرية الرّسالة ذاتها.

بيد أنَّ النُّصوص المقدَّسة التي تؤدّي هذه الرّسالة (الزَّبور والتَّوراة والإنجيل والقرآن) تحمل اختلافات فيما بينها وتناقضات ذات قيمة، وهذا - في نظر الإسلام - دليل على تحريفاتها اللَّاحقة من طرف أتباع تلك الدّيانات. والمثل الأكبر على ذلك الإنجيل، حيث حرَّف النَّصارى النّصَّ الأصليَّ للإنجيل، إلى درجة أنَّه انقسم إلى أربع روايات أو أكثر. وحده القرآن - بمعجزة - كان بمنجى من هذا التّزييف. فبقية الدّيانات - عند المسلمين - خاطئة لأنَّها تعتمد نصوصاً مزيَّفة.

حقيقة وحيدة

أمَّا في اعتبار الشّيعة فإنَّ المعنى الظَّاهر الحرفيّ لنصوص الوحي لا يعدو أن يكون غلافاً خارجيَّاً يُخفي معنى خفيَّاً باطناً. ومن ثَمَّ فإنَّ الاختلافات بين الأديان ليست إلا مظهراً خارجيَّاً لأنَّها لا تطال إلا اللّحاء

12- لعلَّ ما قصد بالروح هنا هو النفس الكليَّة التي بيَّنها أفلوطين في نظريَّة الفيض، وهي المصدر الذي تنبثق منه النفس قبل حلولها في الطبيعة.

13- طريق العودة مقابلة لطريق الانبثاق في نظريَّة الفيض عند أفلوطين، حيث ينطلق مسار العودة من حلول النفس في الطبيعة.

الخارجيَّ (الظَّرف) الذي أودعت فيه الرّسالة. فإذا ظهر هذا الظَّرف بأشكال متعدّدة فإنَّ المظروف ثابت دائماً. وهكذا فإنَّ تعدُّد الدّيانات - وهو أبعد من أن يدلَّ على زيفها - يُفسّر بالسّياق الثّقافيّ الذي ظهرت فيه كلُّ ديانة.

حداثة لا ريب فيها

ها هنا ترتسم صورة على قدر كبير من الحداثة وقعت صياغتها بشكل صريح في القرن العاشر في رسالةٍ لإخوان الصَّفاء، وهم جماعة من العلماء على صلة بالشّيعة الإسماعيليَّة، حيث اعتبروا أنَّ تعدُّد الدّيانات لدى الإنسانيَّة تحكمه السّياقات التّاريخيَّة والثّقافيَّة والإثنيَّة، وكلُّ نبيّ تكلم لغة القوم الذين أرسل إليهم مع الأخذ في الاعتبار عاداتهم وتقاليدهم وطرق تفكيرهم. بيد أنَّه، وراء هذه المظاهر الخارجيَّة المتغيّرة، تختفي حقيقة أزليَّة واحدة للإنسانيَّة. مثل هذا الموقف اتَّخذه عدد من المؤلّفين الشّيعة حتى من خارج المذهب الإسماعيليّ، فكانوا يذكرون التَّوراة والإنجيل بالعبريَّة حيناً وبالسّريانيَّة حيناً بالقوَّة ذاتها التي يذكرون بها القرآن، وذلك بهدف إبراز المعاني الباطنيَّة، وحتى النُّصوص الأجنبيَّة عن السُّنَّة الإبراهيميَّة كانت موضوعاً لتمشٍّ مشابه. وهكذا فإنَّ الكتابات السَّابقة لسقراط، مثل كتابات أفلاطون وأرسطو، ينبغي أن تكون حاملة لحكمة تبيَّن أنَّها متناغمة والمعنى الباطن للقرآن.

إنَّ ما نقرأه لدى هؤلاء الفلاسفة القدماء يتركنا مشدوهين أحياناً لأنَّ كتاباتهم تدلُّ على مدى الانفتاح العقليّ الذي أتاح للمذهب الشّيعيّ أن يستوعب في ممارساته العديدَ من الإضافات من الموروث العقليّ الإنسانيّ.

ثراء نظريّ

هذا الانفتاح على الآخر يدلُّ على كثير من التَّسامح الفعليّ إزاء الموروث الفلسفيّ والدّينيّ أيَّاً كان اختلافه. ولم يكن التعدُّد منظوراً إليه على أنَّه علامة ضلال مذهبيّ، بل على أنَّه ثراء، حتى أنَّ بعض التّيَّارات الإسماعيليَّة في الهند استوحت من النُّصوص المقدَّسة الهندوسيَّة وتغذَّت بها، وهي ديانة تُعتبر وثنيَّة عند المسلمين بسبب تعدُّد الآلهة فيها؛ وبالتّالي فهي محرَّمة. هذا التَّقارب بين الإسلام الشّيعيّ والهندوسيَّة أضحى أكثر وضوحاً في مناخ الأحقاد الدّينيَّة التي ما فتئت تمزّق شبه القارَّة الهنديَّة.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017